٨- سلطان تحت الحماية البريطانية

■ السلطان حسين كامل

"يا صاحب السمو.. لدى حكومة جلالة الملك (ملك بريطانيا) أدلة وافرة على أن سمو عباس حلمي باشا خديوي مصر السابق قد انضم قطعيا إلى أعداء جلالته وبذلك تسقط الحقوق التي كانت لسلطان تركيا وللخديوي السابق.. وبزوال السياسة العثمانية تزول أيضا القيود التي فرضت على عدد جيش سموكم وحقكم في الإنعام بالرتب والنياشين".

قصر عابدين

١٨ ديسمبر ١٩١٤م

ركب عربته السلطانية، تدجَّجَ بخيالاتهم، خلعوا عليه رداء السلطنة، جعلوه يناطح الباب العالي، أفاضوا عليه بنعمة لم يحلم بها، صار أحد أتباعهم، لا يبغي من الحياة سوى إرضائهم، وفي النهاية أصبح طوعًا لهم.

خاف على تاج عائلته، خاف أكثر أن يضيع الحكم من أسرته، هدوده بأنهم على استعداد لأن ينهوا مجد عائلته، هددوه بأنهم سوف يولون أي مسلم حتى ولو كان هنديًا، تفننوا في تنفيذ المكيدة، وسموا ابن أخيه بالعار، وأضافوا أنه خائن للبلاد وللعباد وأنه مال للأعداء، فكانت فرصته وتولى سلطته.

الموسيقى تعلو نغماتها، تسير معهم في محاذاة، الخيالة الإنجليزية تسير أمام عربته السلطانية، كوبري قصر النيل مكتظ بمظاهر الأبهة والعظمة، الخيالة المصرية تسير خلفه، عربته محاطة بجيش جرار، يعلم أن الناس لن يتقبلوا حيلهم، خرج من قصر ابنه كمال الدين حسين، لابد أنه خاف أن يخرج من قصره بمصر الجديدة، المسافة بعيدة والناس بين فرح ومغتاظ ومترقب،

لابد أنه خاف على نفسه من فتك المصريين به، يعتبرونه حاكمًا دون سلطة، نعتوه سابقا بأنه صديق الفلاح، فكان لهم عونا، أما الآن فسيكون عونا عليهم.

"إن وزير خارجية جلالة ملك بريطانيا يعلن أنه نظرًا لحالة الحرب الناشئة عن عمل تركيا، فقد وضعت مصر تحت حماية صاحب الجلالة، وسوف تصبح من الآن فصاعدًا تحت الحماية البريطانية، وبذلك انتهت سيادة تركيا على مصر، وسوف تتخذ حكومة جلالة الملك جميع الإجراءات الضرورية للدفاع عن مصر وحماية سكانها ومصالحها، وعندما نشبت الحرب، عهد بحماية مصر إلى جيش الاحتلال البريطاني، بينما اضطلع الجيش المصري متعاونًا مع الحامية البريطانية الصغيرة في الخرطوم بمسئولية الأمن في السودان، ولقد قامت جنود السودان بمساعدة فعالة في أثناء الحرب، ووضعت مخازن الجيش، ومستشفياته وإدارات ذخائره تحت تصرف الحاميات المصرية"

الإنجليز يسرعون بمراسم تتويجه بعابدين، بعد أن أعلن العثماني الحرب عليهم، فهم من أخذوا درة تاجه، لكنهم لم يستطيعوا فعل شيء، سحقهم الإنجليز في السويس، ميدان عابدين ممتلئ عن آخره بقرق الموسيقى والخيالة والحرس، المندوب السامي الجديد يستقبله أمام باب القصر، الأمراء في كل ركن من أركان القصر العتيق، التحيات تتلى والمباركات تغني عن كل ما سمعوه من خيانة الضباط في السويس، فهم حاولوا أن يمرروا طريقًا للأتراك بقناة السويس لكن المدفعية الإنجليزية أبادتهم وهزمتهم.

جلس على كرسيه، ارتدى أنوطته ونياشينه البريطانية، أمر رشدي باشا بأن يشكل وزارته، فلم يتردد في الموافقة، نسى من أولاه دفة النظارة، الكرسي هذا شيء غريب وجذاب يتقاتل عليه الجميع هو دائما محل إجابة.

غير السلطان الجديد كل الألقاب والرتب حتى أنه أمرهم بإلغاء منصب قاضي القضاة، الذي وقف ابن أخيه سابقا أمام كرومر ليستمر عثمانيًا، لكن ليس له مكان الآن في مصر، في سلطنة، في مقام السلطنة العثمانية، لكن الشعب لم يقنع بأفعالهم، كل جوارحهم تكره هذا المحتل، أصبح في نظرهم محتلاً جديدًا، أذاقوا وزراءه ألوانا من العذاب، قتلوهم ونشروا الحرب عليه، حتى أن الشرقاوي سرق قصره.

حاول أن يلقي كلمة بكلية الحقوق، حاول أن يتقرب للمصريين، لكنهم نهروه، لم تأتِ الطلبة، كلية الحقوق العامرة أصبحت بلا رواد، نصف الطلبة لم يتقبلوا الأمر، بدأ يسقط في عيون شعبه ومثقفي دولته، حاول أن يصبح حاكما فأصبح محكومًا، محكوم عليه بالنفي على كرسي سلطنته.

قصر عابدين

١٩ أكتوبر ١٩١٧م

الإنجليز يسخرون منه في كل شيء، أعثرته اللعنة العلوية، أصابه المرض، هزال شديد يعترضه، لا يستطيع التفكير، أتوا له بطبيب للأمراض العقلية، طرده وارتجت جدران القصر من غضبه، الشعب يريده أن يذهب في رحلته إلى مسجد الرفاعي، دار الحياة الأبدية، حاولوا قتله، هذا التاجر محمد خليل لم يندم على فعلته، حاول قتله فأطلق النار على عربته السلطانية بعابدين، طلبوا منه أن يطلب العفو، لكنه لم يفعل، فأعدموه، يموت ويأتي غيره وكأن الشعب متلهف لهذه الزيارة التي قام بها إلى الرفاعي، فيعلن الملك البريطاني الحداد وتصدر دار الحماية البريطانية نعيًا للسلطان حسين وعليه تكتسي الدولة بلون الحداد لمدة سبعة أيام، حتى ينظر في أمر الحاكم الجديد الذي تبرأ من الحكم وتنازل الأمير كمال الدين حسين عن العرش الذى آل إلى عمه صاحب العظمة السلطان فؤاد الأول.

* * *

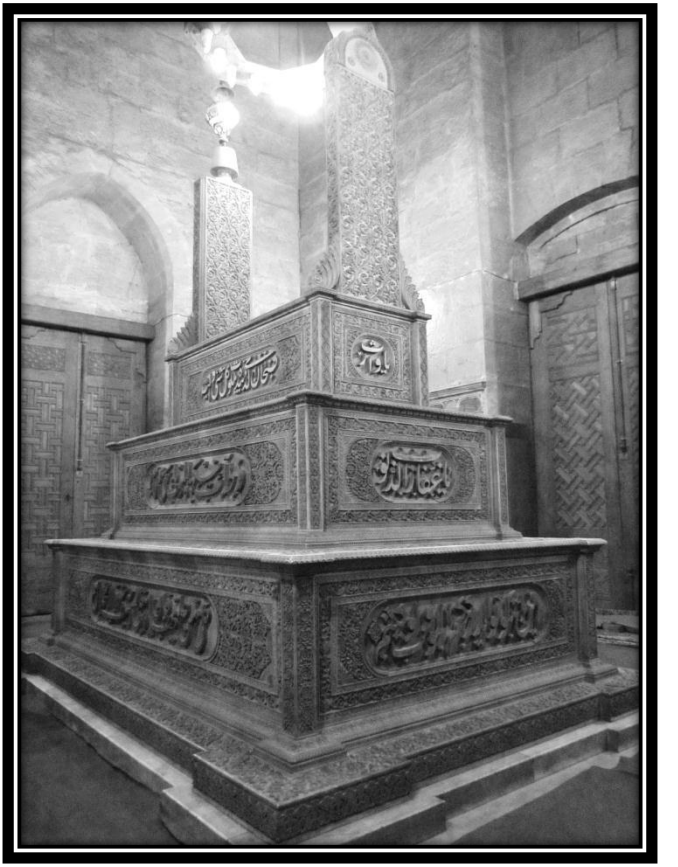

■ ضريح السلطان حسين | مسجد الرفاعي